

الإمام .. خط الدفاع الأول في المحافظة على المرجعية

الأستاذ: عيسى مقاري
المدير الفرعي للتوجيه الديني والنشاط المسجد

هذه البدايات تدرجت - تقريبا - على
النحو الآتي:

-هيئات جديدة لم يألفها الناس
في أداء الصلاة، القبض بعد أن كان
السدل هو الأصل، هذا القبض
سيأخذ أشكالا.. ميلان البعض قليلا
تجاه ما يتوهم أنه تدقيق القبلة من
دون باقي المصلين في المسجد.. النهوض
بعد الصلاة وترك رفع اليدين للدعاء
باعتبار ذلك بدعة.. جلسة الاستراحة
مع الغلوفي أدائها.. صلاة تحية المسجد
والإمام على المنبر أو قبل وبعد أذان
المغرب.. الخ..

في هذه المرحلة بدأ المسجد يفقد
الانسجام الذي كان عليه، وصارت
هذه الهيئات تميز جماعات داخل
المسجد، أقاموا على أساسها كيانات،
وتكونت الآخرة في المسجد على

بسم الله الرحمن الرحيم..

الحمد لله رب العالمين، والصلاة
والسلام على المبعوث رحمة للعالمين،
سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه ومن
اهتدى بهديه، واستن بسنته إلى يوم
الدين...وبعد،

أحب أن أبدأ الكلام عن المرجعية،
والدور الخطير للإمام في الحفاظ عليها
من حيث كونه خط الدفاع الأول في
ذلك..من بدايات بسيطة جدا.. تبدو
ساذجة موهلة في السذاجة.. لكنها -
في تقديري على الأقل - بدايات لها
ما بعدها.. ورحم الله جلال العالم
الذي قال: «علمتنا التجارب أن
أتفه المقدمات قد تؤدي إلى أخطر
النتائج.. كما أن أخطر المقدمات قد
تؤدي إلى أتفه النتائج..».. أقدر أن

الدراسات

وسعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح وإبراهيم النخعي وابن سيرين والليث بن سعد، فضلا عن الإمام مالك، وخلق كثير من الصحابة والتابعين.. كانوا يسدلون في صلاتهم.. وأنهم كانوا يتحرون بذلك سنة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.. وقس على ذلك الهيئات الأخرى..

✓ أنها كانت تؤدي غالبا على سبيل التحدي، وكانت تقام حولها الكيانات والأتباع.. ومن ثم كان الحرص عليها كالحرص على الواجبات رغم أنها في أغلبها أقصى ما قيل فيها عند من يقول بها أنها مستحبات؟؟؟

✓ روح التحدي، تحدي ما كان عليه الأمر والعمل، كان من القوة والحضور بحيث تعدى الأمر إلى مخالفة الأمة في مواعيد الصيام وعيد الفطر.. ورأينا من كان يشرب القهوة والحلوى في الشارع في يوم اعتبر الثلاثين من شعبان وفق لجنة الرؤية للبلد، فضلا عن إرغام الناس على إخراج زكاة الفطر حبوبا وإلا فهي صدقة من الصدقات.

أساسها، فصارت الصلاة صلاتين: صلاة «الشيوخة»، وصلاة «الشباب». الأمر الذي ولد رد فعل عنيف لدى الكبار من مرتادي المسجد بحيث اعتبروا هذه المظاهر الجديدة «دينا جديدا».. وانزعاجهم من لأمر لم يكن خافيا..

بيد أن الأسوأ من فقدان المسجد انسجامه وتناغمه في تلك الفترة، هو المغالطات والمفاهيم الخاطئة التي صاحبت هذه التحولات، والتي أرى أن أهمها يتمثل في:

✓ أنها كانت تقدم على أنها السنة، لا على أنها سنة.. وعلى أنها صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم، لا على أنها من الصفات والهيئات التي رويت عنه صلى الله عليه وسلم.. قيل لنا يومها - على سبيل المثال - أن السدل هو «السنة».. لا على أنه «سنة».. لكن أحدا يومها لم يقل لنا أن السدل كان هيئة سيدنا أبي بكر في صلاته.. وأن عبد الله ابن الزبير والحسن البصري ومجاهد بن جبر وسعيد بن المسيب

الشعائر وفق مذهب آخر تحت عناوين تغري مثل «صفة صلاة النبي»، و«اتباع السنة والدليل».. وكأنَّ الإمام مالكا، إمامَ دارِ الهجرة، وأئمة المذهب كانوا يصدرُونَ من غير الدليل والسنة...

- معروف في مجال الهندسة أن انفراج الزاوية يبدأ ضئيلا، لكن خطي الزاوية يزدادان تباعدا كلما ازداد طولهما، وزاوية الانحراف تزداد اتساعا.. هل تعلمون بأنه في هذه الأثناء، قصدت شلة من هؤلاء بيت عالم فاضل من علماء الجزائر «رحمه الله».. وطلبوا منه أن يفتي الشعب الجزائري كله - وضع سطرًا تحت كله - بأن يغير عقيدته لأنه على ضلال بوصفه أشعريا.. أعلم أن الشيخ رحمه الله طردهم من بيته.. يصل الأمر بهم إلى غاية اعتبار العقيدة قميصا نزعته متى نشاء لنلبس غيره..؟ إنه فقدان النسق الذي يجعل صحبه يخطب خبط عشواء، ورحم الله السلف حين قالوا: **من تكلم في غير فنه جاء بالعجائب!!!**

- .. في هذه الفترة يأتي المعرض الدولي للكتاب.. وهو أمر محمود في ذاته، لكنه صادف وجود روح تحدي ما عليه العمل تحت عنوان «اتباع السنة»، فأفرز بما أتاحه من مراجع لغير المتأهلين ليتجرؤوا على الفتوى، ويصدروا من كتب هي في الأصل لمن أحكم الآلة واستكمل دراسة الفقه على المذهب.. فوجدنا من العمال البسطاء من يصدر في تنطعه من كتب كالفتح، ونيل الأوطار، وسبل السلام.. انتهاء بمجموع الفتاوى...؟؟؟

هذه الفترة ستؤذن بدخول دعوى **«اللامذهبية»**.. وظهرت عبارات من أمثال **«هم رجال ونحن رجال»**.. و**«إسلام بلا مذاهب»**.. وصار ابن عاشر عند من فقدوا الأدب «ابن خاسر»، و**«المدونة»** المدودة.. تهافتت علينا الفتاوى بحرمة التقليد ووجوب اتباع الدليل.. دعوى استهوت عددا غير قليل من قليلي الفقه.. وهي دعوى لا تخلو من إغراء.. لأنه في نهاية المطاف من يرفض اتباع الدليل والسنة؟؟ وهنا كانت المغالطة، أي قولبة أداء

الدراسات

عقد الأمة.. ونغدو كما قال الشاعر:

هزّلت حتى بدا من هزالها

كُلاها وحتى سامها كل مفلس

حين ظهرت اللامذهبية (اللانسقية).. في بدايتها مع ما صاحبها من مظاهر مزعجة في المساجد، ومع ما تزامن معها من جرأة على الفتيا، لم يكن الأمر بالغ السوء، لأن الإمام لم يكن منخرطاً فيها إلا في بعض الحالات الاستثنائية، فبقي الحزب الراتب، والعصا في المنبر، ودرس الجمعة وما إلى ذلك من مظاهر وحدة المرجعية..

لكن الأمر صار موغلاً في السوء، وينذر بالفوضى حين صار الإمام أحد الفاعلين في تكسير وحدة النسق في هذا البلد، وهنا لا بد من كلام للإمام من حيث هو خط الدفاع الأول في هذا الشأن..

• على الإمام أن يستحضر أنه استؤمن على مؤسسة من مؤسسات المجتمع، وهو مرتبط معه بعقد بحيث يعمل على تحقيق مقاصد المؤسسة

لقد رأينا كيف بدأ الأمر فيما نراه بسيط، وهو مخالفة المرجعية في هيئات هي مستحبات على سبيل التحدي والتعالم ينتهي إلى الأمة كلها ضالة في فقها وعقيدتها.. وانتهى الأمر إلى ما هو أسوأ حين طمع كل صاحب نحلة فاسدة، وفكرقاتل في أن يجد له موضع قدم في هذا البلد، لأن هؤلاء السذج عبدوا له الطريق حين أحدثوا ثقباً في جدار مرجعية الأمة المنيع، وعملوا على تكسير التأطير التقليدي التاريخي للحالة الدينية في الجزائر ووفق ثلاثيتها المشهورة، والتي حمتها من كل الأفكار الهدامة، وصانت بلدنا من شر ما وقع فيه الكثير من بلدان المشرق من فتن طائفية لم تبق للناس ديناً ولا دنياً....

إن السبحة نسق، وفق عدد له معنى، وفق ترتيب له معنى، ولا يمكن أن تزيد فيها حبة إلا إذا قطعت الخيط الذي ينتظم حباتها، وحينها فقط تستطيع أن تزيد ما شئت من الحبات.. لأن الخيط - النسق قد قطع.. فانفرط

الدراسات

وهنا أسترسل لأقول: إن عمل الهيئة المخول لها مراقبة أداء الإمام -في تقديري- لا يكون جدالا في نصوص ثابتة أو لم تثبت مع هذا الإمام، أو استعراضا للأقوال وما شابه ذلك.. إنما يكون محاسبة على إخلال ببند من بنود عقد وضعت بوضوح بحيث لا تحتل إلا معنى واحدا، ورضاه بعمله كإمام تعبير عن احترامه لها وتبنيها...

سألت إماما لماذا لا تصلي وفق ما قرره الإمام مالك.. هل تظن إن صليتها كذلك تكون غير صحيحة..؟ قال : لا أظن ذلك.. قلت له إذا لماذا لا تفعل وتكون قد حققت مقصدين هامين: صليت وفق مذهب إمام دار الهجرة وأهل المدينة، وتكون في نفس الوقت جسدت دور المسجد في إيجاد الانسجام والتناغم بين أفراد المجتمع...؟ تململ قليلا، فقلت له: مشكلتك أن هذه الهيئات التي تخالف بها المذهب أقصى ما قيل فيها عند من قال بها أنها مستحبات.. صارت عندك عنوان الانتماء، ومعقد الولاء

في إطار المنظومة التي ارتضتها الأمة، وإلا يكون قد أخل بهذا العقد، والعقد شريعة المتعاقدين..

• الأمثل أن يؤدي الإمام شعائره وفق المذهبية المعروفة للبلد، فإن عدمنا المثال فلا نقبل أن ينزل إلى حد قولية الشعائر وفق مذهبية أخرى تحت مسمى السنة أو الدليل، فكل الاجتهادات في هذه الفروع كانت من الأئمة تحريا لما يراه كل واحد الأقرب إلى السنة، ولكل أدواته وأصوله، فلا مزايدة في هذا المجال...

• أن لا يأتي في درسه وخطبته ما يتعارض مع هذه المذهبية، وماهي عليه الحالة الدينية في بلدنا، فلا نقبل منه درسا ولا خطبة في تبديع الأشعرية أو الإباضية فضلا عن تكفيرهم، ولا يبدع ما عليه العمل في الفروع مما هو محل خلاف ويحتمل أكثر من رأي، وإلا كان مخلا بالعقد.. وهنا لا بد من أصول نظرية لتأطير الخطاب المسجدي بحيث يكون الإخلال بأحد بنودها إخلالا بالعقد..

الدراسات

على ذلك أنهم سرعان ما ينقسمون إلى جماعات تحمل أسماء أشخاص جعلوا من الأمور الخلافية سبيلا لتكوين الأتباع، وإقامة كيانات على أنقاض ما يهدمونه من وحدة المجتمع وانسجامه وصدق الشيخ الغزالي رحمه الله حين قال: «إن المتاجرة بالخلاف خيانة»... وإذا غاب النسق، وانفطر العقد صار الأمر ميسرا على صاحب كل فكر دخيل أن يزرع فتيلة في بلدنا قد يشتعل في أي وقت لا سمح الله..

.. وإذ نسلم بأن الإمام لا ينهي بالتزامه مظاهر تحدي المرجعية في مسجده، هذا مما لا شك فيه، لكنه من خلال مرابطته على ثغر المرجعية يبقى المجموع، أي عموم الأمة وفقها.. وحينها لا يضر الأمة في انسجامها أن يكون لأحاديها مسالك تخالف ما عليه المجموع..

.. فهل وعى الإمام جسامة المسؤولية، وهل أدرك القائمون على تكوينه أي ملمح نريد في هذا الإمام..؟

ملاحظة: للمقال مراجع.

فتضخمت.. وعوض أن يقول المسجد أنا، قلت أنت: أنا.. والغريب أن ابن تيمية الذي قد يرجع إليه الكثير من هؤلاء له قاعدة ذهبية هي «ترك المندوب من أجل تأليف القلوب»، حيث يقرر رحمه الله تعالى: أنه «يستحب للرجل أن يقصد إلى تأليف القلوب بترك مثل هذه المستحبات لأن مصلحة التأليف في الدين أعظم من مصلحة فعل مثل هذا»...

حين نروي قصة الإمام الشافعي وكيف أنه صلى في مسجد أبي حنيفة، فصلى بالناس وفق مذهب الإمام الأعظم، نحملها دائما على تقدير الشافعي لأبي حنيفة، ونذهل عن مقصد عظيم رعاه الإمام وهو أنه صلى بأناس تراكنوا إلى هيئات معينة في الصلاة وفق مذهبيتهم، فحفظ عليهم هذا الانسجام باعتباره مقصدا من مقاصد الشعائر الجماعية..

• إن أمر المحافظة على النسق ليس بالأمر الذي يستخف به، لأن الذين راموا تكسير النسق أعجز من أن يضعوا نسقا بديله يجمع الأمة، ولا أدل